اللذة الصاخبة

فى « أفاعى الفردوس » لأبى شبكة

١

من المعروف أن شعرنا العربى القديم ملىء بما يصور اللذة والمجون منذ عصره الجاهلى ، فنحن فى هذا العصر نقرأ عند طرفة والأعشى وامرىء القيس أشعارا فى المرأة والرجل ونزعاتهما الجسدية وتفتح هذه النزعات ، وهى أشعار نفَّسوا بها عن الحسية ، وتحرروا فيها من كل التزام ، وخاصة من حيث وصف المرأة وأعضائها وثروتها الجسمية .

وخفت هذا الصوت فى العصر الإسلامى تحت تأثير الدين الجديد ، فلما كان العصر العباسى ارتفع الصوت بأقوى مما كان مرتفعا فى عصر الوثنية ، وكان للموالى والجوارى الأثر الأول فى ارتفاعه ، إذ انتشرت فى الحياة الاجتماعية خلقية جديدة . ولم يلبث أن ظهر بشار . وكان ضريرا ؛ وعمد عمدا إلى تصوير الغرائز الجنسية فى الرجل والمرأة جميعاً ، ومن مشهور شعره قوله :

لا يُؤْيِسَنَّكَ من مخدَّرةٍ قولٌ تغلِّظُهُ وإن جَرَحَا
عُسْرُ النساء إلى ميسرةٍ والصعبُ يمكن بعد ما جَمَحا

وخلفه أبو نواس وجماعته من مثل الحسين بن الضحاك ، فزادوا فى الطنبور نغمات ، وأضافوا إلى المرأة والغزل بها الغزل بالغلمان ، وأفحشوا فى ذلك وبالغوا فى تهييج كامن الشهوات ، بل قل إنهم أضرموا نار الغرائز الجسدية إضراما ، وأشعلوها فى نفوس معاصريهم إشعالا . ثم خلف من بعدهم ابن حجاج وابن سكرة فى العراق وابن سناء الملك فى مصر وابن قزمان

فى الأندلس فأمدوا هذه النار بوقود لا ينفد ، وسرت حرارتها فى كيان المجتمع العربى كله .

وكان يلمع شررها فى عصرنا الحديث على لسان حافظ والرصافى وأضرابهما ، غير أنهم لم يسجلوه فى دواوينهم ، لأن الدواوين أصبحت تنشرها المطابع ، وتذيع فى كل مكان . فاستحيا الشعراء أن يقرأ لهم الناس شعرا ينفث الغواية والفجور .

ومع أننا لا نرتضى الإسفاف بالغرائز فإننا نرى أن ينشر الشعراء شعرهم سواء منه الطاهر العفيف والماجن المفحش ، حتى لا تكون حياة الشاعر ذات وجهين ، وجه صناعى يُعَرَّض للضوء ويراه الناس جميعاً ، ووجه طبيعى تستره الظلال ، فلا يراه إلا أنظار الأصدقاء والأصحاب .

وليس بصحيح أن قراءة مثل هذا الشعر تغرى بالفحش والفجور دائما ، فقد تكون مطهرة لبعض الناس كمن يداوون السموم بالسموم ، أو كمن يستغيثون على مرض بتطعيم الجمهور منه ، كما نعرف فى الجدرى . فهذا الاتجاه قد يداوى رغبة مكظومة فى بعض الناس ، وقد يساعدهم على التخلص من عفن جسدى أصابهم . وفى الأدب الغربى نماذج من هذا الأدب ، وخاصة فى باب القصة ، إذ يصورون الشهوات الجنسية وما تنهش من قلوب أصحابها ، ويتعرضون للمرأة ، فلا يتحرجون ، ويصورون ما يعتلج فى جسدها من هذه الغريزة الضارية ، ورواية لورانس : « عشيق ليدى تشاترلى » مثال خسيس لهذه النزعة ، وفيها تنتصر الدعارة على الزوجية ورواية « يوليس » لجيمس جويس مثال خسيس آخر . ومن الغربيين من اتخذ العهر والفحش مذهبا له آمن به واعتنقه ، وسيرة الشيطان الرجيم « بودلير » ذائعة معروفة ، وديوانه « أزهار الشر » كأنه دار من دور الفجور ملئت بالفواحش والمخازى .

٢

وديوان « أفاعى الفردوس » لإلياس أبى شبكة تصوير هو الآخر لهذه الناحية الوضيعة فى الإنسان ، ناحية اللذة الجسدية الصارخة ؛ وقد بدأ فى نظمه سنة ١٩٢٨ وانتهى منه سنة ١٩٣٨ أى قبل وفاته بنحو تسع سنين . وهو فيه يحاول أن يصوِّر نار الفحش التى تتلظى فى جسد العاهر من رأسها إلى أخمص قدميها ، واختار لذلك مواقف فاجرة ، سيطرت فيها الشهوة الجسدية على المرأة فأفقدتها توازنها ، وأسقطتها من قمة الشرف والطهارة إلى درك الدعارة . وقصيدته « الأفعى » من خير الأمثلة لبيان هذا الاستغراق الجسدى الجنونى ، وهو فيها يعرض زوجة تستهين بالصلة الزوجية المقدسة ، بل تدوسها وتطؤها تحت قدميها وطئا ، هاربة من سياجها إلى ساحة الشهوة العارمة ، وإنها لتحمل ابنها فوق صدرها ؛ بل إنها لتلقيه محولة ثديها من فمه إلى فم الحبيب ، راكعة تحت قدميه . يقول موجهاً حديثه إليها :

أقول لها أعراقُ زوجك لم تزل ... وفى قلبه عطفُ الأبوة لم يَبْرَا
ولم يَبْرَ إحساسُ الرجال بصدرهِ
فحبّك يجرى منه فى الجهة اليسرى
أقول لها ثوبَ العفاف تذكرى ... ففى ساعة الإكليل لم يَكُ مُعبرّا
لبستِ رداء العرْس أبيض ناصعا
فمن أين جاءت هذه اللطخةُ الحمْرا

ويتحدث عن ندمها ، وسرعان ما يعود إلى الشيطان الذى أغواها ، وأخرجها من فردوس البراءة والشرف إلى جحيم المتاع الجنسى ؛ ذلك الجحيم الذى أضرم فى جسمها نار الشهوة ، وهى نار لن تخمد ولن تهدأ إلا أن ترتمى فى أحضان شيطانها الآثم الذى وهبت له جسمها . وقد تحول إليه أبو شبكة ، يقول :

ستملكها ما شئتَ بعد فلا تَخَفْ
وتمتصها حتى تصيِّرها قشرا

ستحفر مصقولَ الرخام بجسمها شفاهُك حتى تبرز الأعظم الصفرا
ستمزج بالسم الذُّعاف دماءَها لتجعلها للموت مَصْلا فيجترّا
وترمى بها فى حمأة الويل والخَنَا سُقاطة عار تلهم الخوف والذعرا
أجل سيراك الليل بعدُ تضمُّها ويبصرك المصباح تعصرها عصرا
وسوف ترى فيك المآثم نعجة قد التصقت فى بطنها حيَّة سمرا
ستملكها ما شئتَ بعدُ فلا تخف فإن ابنها لما يزل يجهل الأمرا
صغيرٌ برىء العين يرضى بلُعْبَة
فيرقد مغبوطا بذى الهِبَة الكُبرى
ينام ولا يدرى بأن سخافةً تلهَّى بها كانت لموبقةٍ سِعرا

فالشيطان قد اشترى العروس بلعبة من لعب السوق أهداها إلى طفلها، والطفل يلهو بها، ولا يعلم من أمرها شيئاً، وأنها باعت نفسها هذا البيع الرخيص بدمية تافهة. فيا للإثم ويا للوزر! لقد انتصرت الوضاعة على الشرف والدعارة على الطهارة، وتقوَّض منزل الزوجية السعيد على من فيه.

وأفضى أبو شبكة يوما إلى نفسه، وفكر فى الشهوة الجنسية تندلع فى الرجل كما تندلع فى المرأة، وتعمق فى فكره، وما زال يتعمق حتى انتهى إلى سراديب نفسه المظلمة، فإذا هو فى عتمة اللذة الجسدية، وإذا بالأفعى تقترب منه وتنفث سمومها فيه، فيصيح صيحته أو قصيدته التى سماها «الشهوة الحمراء» ويستهلها بقوله:

أطْفِىءْ ضياك وأظلِمْ مثل إظلامى
وخلِّنى فى كوابيسى وأحلامى
فرب نيِّرة يا ليل توقظنى إلى العفاف فأنسى عبءَ آثامى

أحسُّ فى جسدى شوقا يعذبنى ففى دمى سَوْرة كالخمر فى جامى
لم يبق فى جفنتى نار لغير هَوًى يودى بجسمى كما أودى بأجسام
حُبِّى النقى كإيمانى القديم مضى وهم هذيتُ به من بعض أوهامى

فهو قد غمس يده فى الحوض الدنس ، بل غمس جسده كله ، فإذا هو يضطرم بالنار التى ملأت صدر الآثمين قبله حرارة وظمأ . وإنه الآن ليخشى أن تمر نسمة عفاف ، إنه محموم بالشهوة ، وهو يهذى بها هذيان الواله ، ويلتفت إلى صاحبته ، فيقول :

يا حسرة الليل كم توحين من حُلُمٍ
مَيْت لقلب بَغِىٍّ أخت آلامِ
أو قلب أرملة جار الزمان على عفافها فأماتت قلبها الظامى

مهما يكن سببُ استسلامها : أهوًى
فى النفس أم كان إنقاذاً لأيتامِ
فلتقض شهوتها حتى يهدِّمها ما كان فى صدرها من عهرها الدامى
وتنجزَ الشهوةُ الحمراء دورتها فيمَّحى رحمٌ من بين أرحام !

وهى إما بغى محترفة ، وإما أرملة ذات حاجة ، وهى فى الحالين قد ذبحت الطهر النسوى ذبحا ، واستسلمت إلى ما فى صدرها من لهيب العهر ، فأصبحت من النسوة اللائى تتفجر الشهوة فيهن من ينبوع فائر على الدوام . وإنه ليقبل على هذا الينبوع فى لهفة :

هاتى من العهر أشكالا ملوَّنةً يمورُ بها بعضنا بعضا وتنهدم
ولنعاط الهوى لعل عصيرا من ثمار الشفاه والأكباد
أو لعل الآثام تشرب منا ما تبقى من طهر ماء العماد

فهو قد استمرأ الهوى والحب المحرم ، وأصبح يسيطر على عقله الباطن والظاهر ، ولم يعد فى كيانه شىء من إرادة أو تعقل ، يخلصه من تلك النزوة

والخطيئة الحمقاء ، فعُهْرُ صاحبته جذاب خلاب، وهو يتلون ألوان الحرباء . على أنه سرعان ما يعود إلى صوابه ، فيذكر أنها من نساء الطريق ، وأن الدنيا من حولها تزخر بعشاقها فيقول :

إنا اتحدنا ليوم واحدٍ وغداً يأتى فيخلفنى قومٌ بجمهم
سيعشقونك يوما يغنمون به ما غادرتْ منك ساعاتى لليلهم
وسوف تنسين ، يا أخت الدّما ، نغمهم
كما نسيت على رغم الدماء فمى
عشرون قلبا شربت الحب من دمها
وما شبعت ولم يشبعك شربُ دمى
إذن فسوف تظل النفس جائعةً حتى يجف دم فى عُلبها النهم

فهى شرهة ، لا يشبعها ولا يرويها أى حب مهما كان مترعا بالسعادة ، فقد سيطرتْ الشهوة بدمها ، وهى تريد أن تتذوق جميع متعها الحسية ؛ وهى لذلك لن يسُدّ جوعَها وظمأها عشرون ولا واحد وعشرون ، وما عشرون أو واحد وعشرون وهى تعرف كيف تتقلب بين الرجال ، وكيف تتحول كل يوم من رجل إلى رجل ، تساقيه الهوى الدَّنس وتشرب معه كأسه حتى الثمالة ؟ وستظل كذلك حتى تحطّم جسدها . ويتمثل أبو شبكة أنها سترجع إليه بعد فوات الأوان ، بعد أن تصبح خرابا وأطلالا :

سترجعين ولكن مثل آمالى جوفاء مشلولة فى جسمك البالى
سترجعين مدمّاة مشوهة أدنى إلى الموت منى رغم أثقالى
سترجعين كطيف مرَّ فى حلمى ليلا فذكرنى فى الحلم أهوالى
سترجعين ولا أقصيك عن جسدى حتى تحلّ الليالى الحمر أوصالى
حتى يحل وباءُ الخلد فى كبدى ويعلق العارُ من بعدى بأذيالى

فهو سيظل ينتظرها ، وهى سترتد إليه ، ولكن بعد أن تأكل الشهوة

كل ما فيها من نضرة وجمال . وتصبح كالعود اليابس بل العود المحترق . ومع ذلك سيعود إليها بنفس الرغبة الجشعة الملحة التى لا تقاوم . على أنه لا يلبث أن يثور عليها لما مزقته من عفافه وطهره ، فيقول :

أجَلْ ستذكرك الأعقاب والحقَبُ
مادام فى الأرض من صلب الزّنا عَقِبُ

لا مثلها ذكر الإفرنج « لورهم » ولا كما ذكرت «عفراءها» العرَب
بل مثلها ذكرت روما قبائحها فى مقلتيْ «مسلينا» وهْى تضطرب
هذا هو الليل فاسق السمّ هاتفةً لعل فى الناس قوما بعدُ ما شربوا
وسرّ حى يدك الصفراء فوق هوى يسيل فى محجريه الجهد والتعب

وكأنه يريد بهذه الثورة أن يطهر نفسه من الرجس الذى علق به منها . وإياك أن تظن أن أبا شبكة يحكى هنا صورة حقيقية ، فهو فى هذا كله ممثل يريد أن يعرض عليك صورة الشهوة الجنسية العارمة التى تلفح وجوه كثير من الناس .

ووجهته الأولى المرأة ، فهو يريد أن يجسّم عهرها وفجرها ، وإذا كان قد ذكر نفسه معها فى هذه القصيدة فلكى يتم له النموذج الذى يريد أن يخلقه، ولن تجده يقف فى الديوان وقفة أخرى تشبه هذه الوقفة مع حيّة الفردوس، حقا إنه رجع يغلى فى قصيدته « القاذورة » واسمعه يقول :

حلمتُ بدنيا ليتها لا تبدِّد لذائذَ أحلامى ولا كان لى غَدُ
وأوقظتُ مذعورا إلى شرهاجسٍ كأنىَ روح فى جُثام مشرَّد
فألفيتُ دنيا من فواجعها الورى على بابها لوح من الرق أسود
قرأت عليه أحرفا خطّها اللّظى يروعك منها اثنان: سجنٌ مؤبّدُ
فطوّفتُ فى غمر من الليل والخنا يعربد والأرجاس ترغى وتزبد
وللحمإ الغالى نَشيشٌ ورغوةٌ كأن الورى مستنقعٌ يتنهّدُ

وأغمدتُ فى صلب الدجنَّة ناظرى
وفى كل جفنٍ لى من الهُدْب مبْرد
فأبصرت أطباقا تُعمِّدها يدٌ أصابع من عظم وتصبغها يد
وشاهدت فى الأطباق مفسدة الورى
تمور بها الديدان سكرى تعربدُ
مقاذر تمشى فى الحياة طروبةً تغنِّى وأصداء القبور تردِّدُ
هم الناس فى الدنيا تهاويلُ حنَّطت بكيتُ عليهم فى جحيمى وعيَّدوا
وما هذه الدنيا يذرِّى رمادها لريح الفنا إلا جحيمٌ مرمَّدُ
تلاشت به النيران غير بقية تُشَبُّ ، لها فى شهوة الطين موقد
ففى طبق مستنقعٌ فى صقيعه نمت حشراتٌ فاجراتٌ توقَّدُ
نساءٌ أقلَّت فى الصدور مراضعا على فمها الوردى للإثم موردُ
عواهر أفنتْ فى الفجور شبابها فما روحها إلا عجوزٌ تقوِّدُ
مراضعها فطساء فهْى ضفادع على مائها من شهوة النار تُجْلد

وهو هنا يشبه أن يكون واعظا ، فهو ينظر إلى الدنيا وأهلها نظرة سوداء ، وخاصة إلى ركن المرأة ، فهو يستبشع قذارتها الجنسية وقذارة البشر جميعاً ، ويرى الناس كلهم يَردون هذا المستنقع ، بل هذا السجن المؤبد من الشهوة ، وتتهافت المرأة عليه تهافت الفراش على النار . ويتحدث عن أطباق أخرى غير طبق المرأة ، وهى أطباق شريرة أيضاً ، تملؤها شياطين من الملوك والسلاطين ، ولا يلبث أن يلتفت إلى نفسه ، فيتحدث عن النار النقية التى تومض فى عينيه ، وما ادَّهن به وجهه من زيت مطهَّر ، ويأسى أن يضل طريقه ، حتى ليقول مخاطبا نفسه :

رأيتك تمشى فى المساخر شاعراً وتاجك محطومٌ عليك مكمَّد
ففيم أزغتَ النفس عن نهج قدسها فصارت مغارا سافلا وهى معبد

فأبو شبكة لم يكن فاجرا ولا عاهرا حين صور لنا العهر ، وإنما كان مؤمنا يجرى الإيمان فى أعماقه ، وغاية ما فى الأمر أنه أراد أن يصور لنا الفجر ، فصبّ جام غضبه على المرأة ، وتحوّل إليها يضربها بهذه السياط ، يريد أن يبرّئها من غوايتها وينقّيها من شهوتها ، ودخل معها « فى هيكل الشهوات » قصيدة أخرى له ، فأنشد :

أخاف فى الليل من طيفٍ يسيل على
موجات عينيك حينا ثم يغتربُ
طيفٌ من الشهوة الحمراء تغزله خمر الليالى وفى أعماقه العطبُ
ووجهك الشاحب الجذابُ ترهبنى ألوانه يتشهّى فوقها اللهب
ما زلتِ تغتصبين الليل فى جُهُدٍ
حتى تجمّد فى أجفانك التعب
وما السواد الذى فى محجريك بدا
إلا بقايا من الأحشاء تُغْتَصبُ

وهو هنا يخاف من الشهوة التى تنشرها حولها ، وتجعل كل من يلتقى بها يقع فى شباكها . وهو هادىء النفس ثابت الجأش ، ولذلك لا يثور عليها ، بل يكلمها بصوت منخفض :

وحقِّ طفلك لم أشمت بإمرأة زلّت بها قدمٌ أو غرّها ذهبُ
فرب أنثى يخون البؤس هيبتها والبؤس أعمى فتعْيا ثم تنقلب
لى مهجة كدموع الفجر صافية نقاوتى ، والتقى أمٌّ لها وأب
لى ذكريات كأخلاقى تؤدّبنى فلا يخالجنى رَوْغٌ ولا كذبُ
أبقى لىَ الأمسُ من غلواء عفّتها ولم يزل فى دمى من روحها نسبُ
وحقِّ روحك ياغلوا ولو غدرتْ بىَ الليالى وأصمت قلبىَ النُّوَبَ
إن كنت فى سكرة أو كنت فى دعر ومرَّ طيفك مرَّ الطهر والأدب

فهو يذكر فى هيكل الشهوات بجانب صاحبته الشريرة الخبيثة غلواء النقية البريئة : كأنه يريد أن يردها عن طريق الغواية إلى طريق الرشاد . ويتحدث عن نقائه وتقاه ، وأن الشيطان قد يغويه ، فيكون من الشر على جُرُف هارٍ ، فتمتد إليه يد ملائكية تمنعه أن يسقط أو يضلّ سواء السبيل :

قد أشرب الخمرَ لكن لا أدنّسُها
وأقرب الإثم لكن لست أرتكبُ

٣

ولعل فيما سبق ما يدل أوضح الدلالة على أن أبا شبكة لم يكن ينشد اللذة الجسدية الصاخبة ، فهو ناقم عليها مزدر لها ، وهو من أجل ذلك يصورها فى المرأة على أنها لعنة القدر المشئومة . وما يزال يحمل عليها بسياط من شعره ، يريد لها أن تعيش دائما فى نور الفضيلة ، وأن لا تغيم حياتها أو تظهر فيها سحابة الرذيلة ، فتسقط فى ظلام لا نهاية له .

والقصائد السابقة ليست إلا مواقف مختلفة للشهوة الجسدية عند المرأة ، وهى مواقف أراد بها أن يرسم هذه الشهوة وأن يحدث لها حدودا وأبعادا . وفى أثناء إقامته لهذه الحدود والأبعاد أقام كل ما استطاع من أعلام سوداء تنذر الرجال بأوخم العواقب إن هم اقتربوا من هذه الهاوية .

فأبو شبكة يصور الجشع الحسى عند المرأة فى صور بشعة منكرة ، ولذلك يكون من الخطأ أن يظن ناقد أن قراءته للأدب الغربى وخاصة لبودلير هى التى هدته إلى صنع هذا الديوان وهذه الأشعار ، ففرق بعيد بين الشاعرين وبين هذا الديوان وديوان بودلير « أزهار الشر » . فتلك الأزهار نبتت وازدهرت فى تربة طبيعية ، تربة كلها انحرافات نفسية ، ومن هنا تكون معبرة عن صاحبها مصورة لتحلّله من القيم الخلقية .

أما أفاعى الفردوس فنشأت فى الخارج وجاء شاعر يصور سمومها

وما تنفثه فى البشر ، وهو تصوير شخص لا يقرها ولا يؤمن بها ، بل إنه ليرمى لها بالتعاويذ ميناشرورها وآثامها وخطر ما تلفظه من أفواهها . وهو ليس مفعما بهذه الســـموم ولا محموما ، وهو لذلك لا يهذى بها ، بل يريد لصاحبتها أن تقف عند حدها ، وأن تعود إلى فردوسها عفيفة طاهرة نقية .

ومايزال يوقظ فيها الفضيلة ويفتح عينيها على حقيقتها ، متابعا لها فى أوضاع مختلفة ، ومستعينا فى رسمها على خياله ، وقد يعمد إلى نماذج وضعت فعلا ، فينظمها شعرا من جديد . وأكبر نموذجين رأى فيهما طلبته مجسَّمة هما : قصة لوط وابنتيه . وقصة شمشون ودليلة ، هاتان القصتان اللتان روتهما التوراة ، وتحوَّلتا إلى عمل فنى عند كثير من الشعراء على نحو ما هو معروف عن الفرد دى فينى فى غضب شمشون ، وأيضاً قد دخلتا فى التمثيل الحديث .

وكانت قصة لوط أول ما تناول ، ومعروف أنه بعد أن خُسِف بقومه صعد مع ابنتيه فى مغارة ، وطال انتظارهما معه للزوج ، فعمدت كبراهما إلى إناء للخمر سقته منه ، واضطجعت معه ، وحملت منه بغلام ، وصنعت الصغرى صنيعها . هذه القصة حوَّلها أبو شبكة إلى شعر فى قصيدته « سدوم » أرض لوط وابنتيه ، وهو يفتتحها بقوله مخاطبا بنت لوط ، ولعلها فتاته الكبرى :

مغناكِ ملتهبٌ وكأسُكِ مُتْرَعَه
فاســـقى أباك الخمرَ واضطجعى معه

لم تُبقِ فى شفتيك لذاتُ الدِّما ... ما تذكرين به حليبَ المرضعه
قومى ادخلى يابنت لوطٍ على الخنا ... وازنى فإن أباك مهَّد مضجعه
إن ترجعى دمك الشهىَّ لنبعهِ ... كم جدول فى الأرض راجع منبعه
لا تعبَئى بعقاب ربك إنه ... جرثومةٌ من نارك المتدفعه
فى صدرك المحموم كبريتٌ إذا ... لعبت به الشهوات فجَّر أضلعَه
فى صدرك الدامى مناجمُ للخَنا ... أورثتها نار الذرارى المزمعه

فبكل صقع من ضلوعك قسمة ... خلعٌ على لهب الشباب موزعه

ويتحول إلى «سدوم»، نفسها ويصف ما تنسّمته قديما، من سحر الفردوس وطيوب السماء، وكيف كانت خضراء طاهرة الغراس وادعة آمنة، فكفرت بأنعم ربها، فجعل عالها سافلها، وإنه ليسترسل فى خطابها:

ماذا فعلت سدومُ! أين جواذبٌ ... كانت على تلك الخدور مجمَّعه

فيمَ استحال لبانك النامى إلى ... خمرٍ بكاسات الفجور مشعشعه

ذوّبت خمرك لا ليصبح طاهرا ... لكن ليستهوى النفوس فتجرعه

وجعلت غرغرة الأفاعى كأسه ... ليذوق منها كل قلب مصرعه

سكرت بك الدنيا سدوم! فكلها ... زُمَرٌ على طرق الحياة متعته

وأثرتِ حنجرة الفجور فأطلقت
حُمَما على نغم الجحيم موقّعه

أغنيّةٌ حمراء أنشدها الخنا ... مزقاً على أوتارك المتقطعه

أسدوم! هذا العصر لن تتحجبى ... فبوجه أمك ما برحتِ مقنّعه

كانت منكّرة كوجهك عندما ... هبّت عليها من جهنم زوبعه

قذفتْك صحراء الزنا بحضارة ... ثكلى مشوهة الوجوه مفجّعه

بؤرٌ مستّرة الفساد بخدعةٍ ... نكراءَ بالخزّ الشهىّ مرقّعه

ولا بأس أن تكون خمر سدوم دنسة، وأن تكون كئوسها من غرغرة الأفاعى؛ حتى تكون خمرا سامة قاتلة، وأن تنهل منها الدنيا وطوائف مختلفة من الناس، وأن ترتل لهم أو تنشدهم أثناء ذلك أغنية آثمة، توقعها على أوتارها المتقطعة. لا بأس بذلك كله، ولكن البأس كل البأس فى أنه تحوّل ساخطا على العصر كله وحضارته، فرماه من حالق بقوسه، وذهب يسبّ ويلعن، وأظلمت المدنية الحديثة فى عينيه، فلم ير فيها إلا بؤرا للفساد، وحانات للدعارة. ولو تأنّى لعرف أن هذه المدنية وتلك الحضارة فيها الخير والشر

واللذة والشقاء والسعادة والجحيم والنعيم . وهذا ما يجعلنا ننعته بالواعظ ، فهو يشبه هؤلاء الوعاظ الذين يعظوننا فيصورون لنا أننا نعيش فى دار تعاسة، وأن البؤس يحيط بنا من كل جانب ، وأن حضارتنا متداعية ، وتوشك أن تسقط لما بها من انحلال وفوضى خلقيه ، وأسلحة دمار مختلفة تحملها فى جعبتها ، بل فى صدرها .

والحضارة بخير ، وليس بصحيح أن الفساد قد عم ، وأيضاً ليس بصحيح أن الدعارة قد انتصرت على الطهارة ، وأنها وطئتها بقدميها وامتهنتها ، وسدّدت سهامها إلى قلبها ، وشربت من دمائها . ليس ذلك كله بصحيح ، فالطهارة توجد بجانب الدعارة ، والفضيلة توجد بجانب الرذيلة ، والملائكة تجرى فى دماء النـــاس كما تجرى الشياطين ، ولكن أبا شبكة متشائم متطير أحدّ ما يكون التشاؤم والتطير ، وكأنه يحس أن الإنسانية أصبحت طريدة الشهوة الجسدية ، فهو يجمع نفسه جميعا يريد أن يصرعها قبل أن تصرع الناس وأن يقتلها قتلا ، وإن لم يستطع فليضع فى طريقها أشواكا وصورا قبيحة مشوّهة ، يقول فى نفس القصيدة :

أبغىّ هذا العصرِ خمركِ فاغرفى ... واسقِ ذراىّ الورَى واستسلمى
وبمضجع الغرباء نامى حقبةً ... ثم اعدلى عنه لآخر وارتمى
وتمرّغى ما شئت فى حَمإِ البِلى ... حتى يجفّ بك الرضاعُ وتهرمى
حتى تضاجعك الأفاعى فى الدجى ... ويصير حسنك مخدعا للأرقم
حتى يفور الدودُ منك وينثنى ... يمتصّ جيفةَ عرضك المتهضّم
حتى يدبّ الموت فيك وتمّحى ... ذريةُ المهـــد الأثيم المجرمِ

وهذا ليس وصفاً للهب الشهوة المشتعلة فى جسد البغىّ فحسب ، وإنما هو أيضا هجاء وبيان واعظ لمصيرها وما ينتظرها من شقاء ، فإنها ستتحول مع

الزمن إلى جيفة منتنة . وما يزال هذا شأنها حتى يصرعها الموت ويقضى على الحيـة وسمومها .

ونراه يعود ثانية إلى تصوير هذا الغضب على البغىّ وما تتمرَّغ فيه من الشهوات فى قصيدته « شمشون » وهو رجل من بنى إسرائيل منحه الله قوة هائلة كانت مصدر رعب وفزع للفلسطينيين ، وتصادف أن تعلق قلبه بامرأة بَغىٍّ منهم ، فتزوجها . وحينئذ أغواها قومها أن تعرف سرَّ قوته ، حتى يتغلبوا عليه ، بل حتى يذيقوه بأسهم ونكالهم ، وما زالت به حتى أفضى إليها بأن سرَّ قوته فى شَعـره ، فإذا قُصَّ غاضت قوته كما يغيض الماء من البئر ، وتواطأت معهم ، وهو نائم ، فجزّوا شعره وساقوه أمامهم كالشاة تساق للذبح ، ووضعوه فى السجن ، وانتظروا أياما ، حتى يحاكموه ، فأخذ شعره ينمو من جديد . واجتمع القضاة وجىء به فى الأغلال ، وأطلَّت زوجته دليلة ، ووقفت مع الجمهور المحتشد تنتظر النتيجة . ورآها ورأى قومها وماجمعوا له فدعا الله أن تعود إليه قوته ، وعادت إليه فى لمح البصر ، فأمسك بعمودين كانا بجانبه ، وهزَّهما كعودين ، فتزلزلت الدار بمن فيها ، وخرَّت عليهم جميعا ولم يستطع أحد منهم خلاصا ولا فرارا . وقرأ أبو شبكة ذلك فى التوراة فتحول يقول فى قصيدته شمشون مخاطباً دليلة :

مَلِّقيه بحُسنِكِ المأجورِ وادفعيه للانتقام الكبيرِ
إن فى الحسن يا دليلة أفعى كم سمعنا فحيحها فى سريرِ
أسكرتْ خُدعة الجمال هرقلاً قبل شمشون بالهوى الشريرِ
والبصيرُ البصير يُخدَع بالحُسنِ وينقاد كالضرير الضريرِ
مَلقيه فالليل سكران واهٍ يتلوَّى فى خدره المسحورِ
ونسور الكهوف أوهنها الحبُّ فهانت لديه كالشحرورِ
وعنا الليثُ للبوءة كالظَّبيِ فما فيه شهوة للزئيرِ

ثم مضى يصف هذا الليث أو قل يصف شمشون وما اعتراه من نشوة حبها وما غرق فيه من أحلام بلذته الجسدية ، وصوّر كيف كانت تخافه الذئاب الفلسطينية ، وكيف كان يُشعل غابته بعاصف ملتهب من قوته :

وإذا لبوةُ مخـدَّرة الحُسـنِ تردَّت من كهفها المخدور
تنضح اللـذةَ الشهية منها خمرةٌ من جمالها المأثور
فتنـثُ العَبير فى مخدع الليـل فتَشْهَى حتى عروقُ الصخور
فتلاشى اللهيب فى سيِّد الغا بِ أمير المغاور المنصور
والعظيمُ العظيم تضعفه أُنـثى فينقاد كالحقير الحقيرِ

ويتحول ثانية إلى دليلة يدعوها أن تتملقه، حتى تستطيع أن ترمى الشباك من حوله ، فلا تخطئه ، بل يقع صَيْداً ثميناً لأعدائه :

مَلِّقيه ففى أشعة عينـيك صباحُ الهوى وليلُ القبور
وعلى ثغرك الجميل ثمارٌ حجبتْ شهوة الرَّدى فى العصير
ملقيه فبين نهـديك غامتْ هوّةُ الموت فى الفراش الوثير
هوةٌ أطلعت جهنمُ منها شهوات تفجَّرت فى الصدورِ
مَلِّقيه ففى ملاغمك الحُمْـرِ مساحيقُ معدن مصهورِ
يسرب السمُّ من شفافتها الحَرَّى إلى ملمس الرَّدى فى الثغور

وهو يصورها حية تتلظى الشهوة، بل يتلظى الموت ، بين نهديها وعلى ثغرها ، حيث السموم الفاتكة التى تنفثها وتتعهدها . ويسترسل على لسان شمشون :

خيِّم الليل يا دليلة فى الغا بِ وأغْفَى حتى الشَّذا فى الزهورِ
فانشقى فورة الحرارة من جسْمى وغذِّى قواك من إكْسيرى
أنتِ حسناء مثل جنَّةِ عَدْن كورود الشارون ذات العطور

وكغُفر الوَعْل الوديع وإن كُنتِ تناجين عقربا فى الضمير
لستِ زوجى بل أنت أنثى عقاب شَرِس فى فؤادىَ المسعورِ
فاشتهى كل ليلة مخلبى الدَّامى على خَزِّ جسمك المخمورِ

حتى إذا انتهى أبو شبكة من حديث شمشون مع صاحبته ، وما أخذت تثيره من قروح الشرور فى قلبه ذهب يصور محاكمة الفلسطينيين له وما جمعوا من شر . فهؤلاء الكفرة الفجرة يدخلونه قاعة العقاب ويجمعون له الجماهير لرؤية مصرعه ، وتظهر دليلة تتثنى وترقص رقصة الموت ، الذى يفتح فاه لها وهى لا تدرى أنها تُزَفُّ إليه . وتعلو أصوات الجناة بسبِّ شمشون ، فيثور الغيظ بصدره ، ويحل الإله فى روحه ، فيحطم أغلاله ، وينقض القاعة على من فيها ، وهو يقول :

اسْقُطى يادعائم الكذب الجا نى وكونى أسطورة للدهورِ
محقَ الله فىَّ شرَّ ظلامى فلْتُضِىءْ فى الحياة حكمة نورى
إن تكن جزَّت الخيانة شَعْرى فى ضلالى فقوَّتى فى شعورى

وهكذا انتصر النور على الظلام ، وحقَّت اللعنة على الدَّنس والإثم والشهوة الجنسية الداعرة والخيانة الدنيئة الفاجرة .

وواضح أن أبا شبكة لم يصنع هذا النموذج للخيانة والإثم والدنس ولا النموذج السابق له ، فقد وجدهما فى التوراة حاضرين أو مهيَّئين ، فاستعارهما من هناك ، ليشبع بهما رغبته الفنية فى تصوير الشهوة الجنسية عند المرأة ، وكيف تحركها وتبعثها مختدمة فى صدر الرجل ، فإذا هو عاجز واهن لايستطيع أن يقاوم ، فقد أصبح أعزل ، ولم يعد يمتلك أى سلاح ، بل لقد أصبح مريضاً أو قل أصبح عبدا رقيقا تملكه ، وتشده فى يدها بخيوط من الخيانة والدعارة والعار .

٤

لم يكن أبو شبكة إذن ممن يغرقون فى نشوة اللذة الجسدية العاهرة ، إنما كان ممن تغيظهم هذه اللذة وتملأ قلوبهم حسرة على الإنسانية المعذبة . ولذلك ذهب يصفها باكيا ، بل لاعنا ساخطا ، وإذا كان صَوَّر احتدام حرارتها فى دمه ، فإنما كان يصور فيه الجانب الشرير الذى خاطبته الديانات السماوية فى الإنسان ، فهو يتخذ من نفسه رمزا لوقوع الناس فى الخطيئة وانزلاقهم إليها .

ونحن لانمضى معه إلى أواخر هذا الديوان حتى نقرأ له قصيدته « الصلاة الحمراء » وهى تشبه أن تكون استغفاراً لربه مما قدمت يداه وتوبة نصوحا مما أثمت فيه نفسه ، ونراه يقول فى فاتحتها :

ربّاه عفوك إنى كافرٌ جانى
جوَّعتُ نفسى وأشبعتُ الهوى الفانى
تبعتُ فى الناس أهواءً محرَّمة
وقلتُ للناس قولا عنه تنهانى
ولم أفق من جنون القلب فى سبُلى
إلا وقد محت الأهواءُ إيمانى
رباه عفوك إنى كافرٌ جانى

ويتحدث حديث التائب الذى يرى نفسه مثقلا بالذنوب الجسدية ، وكأنما أفاق من سكرته ، فوجد قدميه تخوضان فى مستنقع الإثم والعهر ، فأمسك بنفسه ، وتوجه إلى ربه قائلا :

وطأتَ لى كنَفَ الدنيا فقلتَ قفى يا نفس فى منهل اللذات وارتشفى
وغاب عنىَ أنى عشبةٌ نبتتْ على جوانب إبريقٍ من الخزف

ومال مذهب طبعى عن سجيته حتى تقلَّب فى بُطْلٍ وفى صلف
على جوانب إبريقٍ إذا نظرت عين إلى عِتْقه انحطَّتْ على تَلَف

فخـــارةٌ ذات نتن قديمـــةٌ كالزمان
مرتْ قرون عليها فحال لونُ الدِّهانِ
ومهد النَّتْنُ فيها مسارب الديدان

وما زال يعرض علينا هذه الحمْأة أو الطينة السوداء من الشهوات التى نبتت فيها النفس الإنسانية — كما يقول — من عهد قايين أو قبل قايين ، مستعرضا جذوتها التى اضطرمت نيرانها فى مقلتى نيرون وغير نيرون . ثم يتوجه ثانية إلى ربه :

ترى مشيئتك العليا تنادينى بثورة النار فى تلك البراكين
رباه ! هل ينتهى حلمى ببارقةٍ من اللهيب ويخبو الطين فى الطين
وهل أُرى زاحفاً فى الليل ملتهبا بجمرة السخط فى أيدى الشياطين
أدعوك والظلمة الحمراءُ تحرقنى فلا تجيب وتلْوى لا تنجِّينى
أعرضتُ عنك غداة القلب ضلَّلنى كأن شهوة قلبى عنك تغنينى
وحين أوقظت من سكر الهوى خجلا بحثت عنك وكاد العار يخفينى
فلم تسِلْ قلبك الرحمن عن ألمى وقلتَ : تطلبنى بين المساكين

لكننى عدت بعد الـ تكفير عن تيهانى
إلى ذنوبٍ جسامٍ كثيرة الألوانِ
وقلت للقلب : أطلقْ فى الموبقات عنانى
طيف الإله بعيـــد وعينـــه لا ترانى
وقيل يومٌ عصيبٌ ينقضُّ قبل الأوان
تنفَّذ النار فيه والحكم للديَّان
فرحتُ أسأل نفسى الـ مدفاع عن كُفرانى

فلم أجد من يُحامى عنى سوى هتانى
رباه عفوك إنى كافر جانى

وإنما نقلنا هذا الشعر كله لندل على أن هذه القصيدة ليست أكثر من اعتراف بالذنب ، بالضبط كهذا الاعتراف الذى يقدمه المسيحى المتدين لقسيسه ، يطلب العفو والمغفرة . فهو يتطهر من إثمه عن طريق اعترافه بخطيئته ، ويريد أن يتناول القربان .

وينتقل بنا أبو شبكة من هذه القصيدة إلى قصيدة أخرى سماها « الدينونة » وهى تتفجر من نفس هذا الينبوع الروحى فى داخله ، ينبوع الإيمان بربه والخوف من عذابه وجحيمه ، ونراه يتبرأ فيها من أقواله التى قد تنم عن شهوة ضارية فيه ، بل إنه يتحول إلى قديس طاهر ، إذ زالت عنه قشرة الشهوة المصطنعة وطلاؤها الكاذب ، وإنه لينحى إبليس لا عن صدره ولا عن كمه ، بل عن طريقه :

حوِّل خيالك عنى ولا تخيِّم عليَّا
فليس أهلك منِّى ولا اللَّظى من يديَّا
لم أغش فى النفس مأثم ولم أنادم رجالك
إبليس ليست جهنم دارى فحوِّل خيالك
قيثارتى لم ألطِّخها بأقذارِ على طوافى بها فى بؤرة العار

ثم يتحدث عن المرأة الشريرة ويطلب إلى إبليس أن يأخذها إليه ، ويدعو عليها بل يدعو على كل أنثى أن لا تحمل قذارة فى بطنها ! . ويصف الشاعر الذى تستعر الشهوة فى قلبه ، فيتحدث عن محبوباته من بغايا المواخير المنصوبة ، ويسأل إبليس أن يأخذه إليه ، ويدعو عليه أن يكون عقيما . ويسترسل فى الكلام عن شياطين الإنس ممن يغوون النساء أو ممن يظلمون الناس ، ويطلب إلى إبليس أن يأخذهم ، ويدعو أن لا ينسلوا فى الأرض

حتى تستأصل شأفتهم ، ويستعرض شياطين آخرين ، وتمر به مواكب أشباحهم إلى سقر ، وبئس المستقر ، وهو أثناء ذلك يردد نداءه لإبليس : حوِّل نخيالك عنى .

وأظن أنه قد اتضحت لنا حقيقة أبى شبكة ، وأنه لم يكن من شعراء اللذات الصاخبة والنزوات الجسدية ، فما جاء على لسانه من ذلك إنما هو قول شاعر ، يقول مالا يفعل ، وينظم مالا يعتقد ، ويغنى بما لا يحس فى نفسه منه أثرا .

ولكن ما الذى دفعه إلى هذا الاتجاه الجسدى ؟ هناك احتمالات مختلفة ، منها أنه أراد أن يجدد فى شعره ، ورأى كثيرين ممن حوله يتحدثون عن شعراء الشهوة الحمراء مثل بودلير وأبى نواس ، فأحب أن يجاريهم ، وإن كان قد أخطأ طريقهم .

وربما كان الدافع إلى هذا الديوان أو هذا الشعر عقدة نفسية سببت كبتا شديداً عنده ، وهى عقدة طبعا عقدتها فى قلبه امرأة ، فأحدثت فيه شيئا من الاختلال النفسى ، ظهر فى هذا النغم الثائر على الغرائز الجنسية ، واللذات الحسية .

وقد يكون الدافع إلى هذا ضربا من التدين العميق جعله يقشعر من هول الخطيئة الجسدية ، بل جعله يحس الشر كل الشر فى المرأة ، فحمل عليها هذه الحملات المنكرة فى مرارة وغضب ، وهى حملات يتحول فيها إلى مايشبه قديسا ، بل إنى أومن بأنه كان يرقد فى صدره قديس فعلا . وإن من يقرأ دواوينه الأخرى من مثل « نداء القلب » و « إلى الأبد » لا يشك فى أنه كان قديساً حقا ، فشعره كله تراتيل وأناشيد دينية ، وما « أفاعى الفردوس » إلا البخور الذى يحترق فى أثناء صلواته وقرابينه وتراتيله .